قضايا التحرر الاجتماعي في الأدب اللبناني

بقلم رئيف خوري

بدأت قضايا التحرر الاجتماعي تبرز في الادب اللبناني مع تباشير عصر الاحياء والنهضة في القرن التاسع عشر .

ومعلوم ان الادب العربي جملة كان قبل هذا القرن أشبه بسفينة قديمة جمدت في خليج راكد المياه لا يطل الا على أفق محدود عليل الضوء . فلما كان هذا القرن أتيح لسفينة الادب العربي أن تتحرك لتنطلق في بحر متسع خفق موجه وانفتح على آفاق تومض بالانوار .

فان مظالم الامبراطورية العثمانية وسيرها نحو الضعف والانحلال وضغط الاستعمار الزاحف من دول أوروبا ويقظة الشعور بالحقوق القومية والوطنية في البلاد العربية ، وتفتح مسالك الثقافة بين شرق المتوسط وأوروبا كل ذلك قد أدى بفعل أو برد فعل في هذا القرن (أي التاسع عشر) الى دبيب حياة جديدة في عروق الادب العربي جملة والادب اللبناني خاصة ، اذ كان الادب اللبناني طليعة في موكب الادب العربي لاسباب منها موقع لبنان الجغرافي وطبيعة تركيب سكانه وجذوره التاريخية وأصالته في المشاركة الحضارية .

وكان من الطبيعي مع هذه الانطلاقة الجديدة ان لا تتراخى المدة حتى تصبح قضايا التحرر الاجتماعي هما مباشرا من هموم الكتاب والشعراء .

وهنا لا بد من تمهل لنلقي نظرة على المجتمع اللبناني في ذلك الزمن .

ان أوضح خصائص هذا المجتمع انه كان يستند الى الزراعة أولا ثم التجارة والحرف . وكانت أجود الارض اللبنانية (وهي ضيقة أصلا) ملكا للامراء والمشايخ ومختلف المؤسسات الدينية . وكانت الطبقات الوسطى من الاسر الفلاحة التي تملك أرضها المحدودة أو الاسر المتاجرة أو الحرفية التي تملك متاجرها ومشاغلها الصغيرة ضعيفة الثقل في ميزان النفوذ والتأثير في المصير .

وكثيرا ما اضطر اللبنانيون الى المهاجرة فرارا من الضيق الاقتصادي أو العسف السياسي .

ولم تكن أيدي المستعمرين العثمانيين او المستعمرين الاوروبيين أو حتى الهيئات ذات النفوذ المحلي لتتورع عن استغلال المذاهب الدينية المتعددة عند اللبنانيين ابتغاء تسعير الفتن الطائفية بينهم وقصدا الى مكاسب ومطامع سياسية .

وبعد ، فهل نحتاج الى القول ان الثقافة وما نسميه الخدمات الاجتماعية كانت مع هذه الاحوال بعيدة عن الانتشار والازدهار ، وان كل نصيب من الحرمان والاضطهاد يقع على الرجل كان يصيب منه المرأة قسمة أشد وأدهى ؟

ومن ثم وجدنا الادب اللبناني يتأثر بأحوال بيئته هذه تأثرا مباشرا قويا فيؤكد من قضايا التحرر الاجتماعي (والفكري بوجه عام) على تلك القضايا التي تعنيه بالحاح واصرار .

وطبيعي ان الادب اللبناني في تناوله هذه القضايا انفعل كذلك بالاحوال والاحداث في البلاد العربية وهي التي تربطها بلبنان أواصر من القربى لا انفصام لها ، كما انه انفعل بالاحوال والاحداث في العالم واستمد منها الكثير من النزعات والمثل .

قضية الارض

فمن أبرز قضايا التحرر الاجتماعي التي سبقت الى الظهور في الادب اللبناني قضية الارض التي اقترنت بمشادة عنيفة بين الفلاحين من جهة والمشيخة الاقطاعية الدينية من جهة أخرى ، وما العاميات المعروفة في التاريخ اللبناني ، ومنها عامية طانيوس شاهين سنة ١٨٤٨ ، الا مظهر من مظاهر هذه القضية الحيوية . ومن يقرأ قصص جبران خليل جبران (١٨٨٣ — ١٩٣١) : « يوحنا المجنون » و « خليل الكافر » وغيرهما يجد أصداء قوية ابتعثتها هذه المشادة الحادة حول الارض .

قضية التفرقة الطائفية

ومذ كان المجتمع اللبناني مؤلفا من طوائف متعددة ، وكانت أنظمة الحكم القديمة وآخرها الاستعمار العثماني وأنظمة الحكم التالية (الاستعمار الغربي) قد أورثت تركة قبيحة من التفرقة بين الطوائف تشجعها في أحيان الهيئات ذات النفوذ المحلي ، فقد دعت دواعي التحرر الاجتماعي الى أدب يكافح هذه الآفة السامة فيبشر بالتسامح ويسير على ضوء العقلانية في فهم الدين ويعري جذور التعصب من أغلفتها التي تلفف بها ، وما الشعار « الدين لله والوطن للجميع » الا صدى يلخص هذا النضال الادبي بوجه التفرقة الطائفية . والادب

اللبناني غني بالمفكرين الذين رفعوا عاليا راية هذا النضال وفي مقدمتهم المعلم بطرس البستاني (١٨١٩ – ١٨٨٣) والدكتور شبلي الشميل (١٨٦٠ – ١٩١٧) وأمين الريحاني (١٨٧٦ – ١٩٤٠) وجبران خليل جبران .

قضية المرأة

وتبرز قضية المرأة كاحدى قضايا التحرر الاجتماعي الخطيرة في الادب اللبناني تناولها المعلم بطرس البستاني في محاضرة مشهورة سنة ١٨٤٨ دافع فيها عن وجوب تعليم المرأة ورسم منهجا بالمواد التي يستحسن أن تدرسها المرأة .

وشغلت قضية الظلم الذي تعانيه المرأة في عاطفتها وحياتها ثمرة الزواج القسري والمصلحي جانبا خالدا من قصص جبران خليل جبران : « الاجنحة المتكسرة » و « وردة الهاني » و « مرتا البانية » وغيرها .

ولم يلبث أن ظهر أدب يدعو الى مساواة المرأة بالرجل في جميع ميادين الحياة والاعمال على أساس حقوق متساوية لواجبات وتبعات متساوية ، الا ان هذا الادب ما زال يغلب فيه طابع التقرير والسرعة الصحفية على الخلق الفني .

ولما كان للمرأة اللبنانية المسلمة أوضاع خاصة فقد نشأ أدب اجتماعي خاص بها مثاله الادب الذي تعرض (في آونة) لقضية السفور والحجاب .

ومن الظاهرات التي يجب أن ينوه بها باعتزاز ان الحركة الادبية في لبنان بدأت تعرف في المدة الاخيرة أقلاما نسوية تكتب معالجة القضايا الاجتماعية ، وفي مقدمتها طبعا قضية المرأة . على ان الرؤية الاجتماعية الواضحة ما لبثت مرتبكة في هذا الادب الذي يثور بالقيود ويشكو القلق وينزع الى التفلت الا انه لا يهتدي الى الطريق .

قضية التعليم الالزامي المجاني

ظفرت قضية التعليم الالزامي المجاني باهتمام نخبة من الادباء في لبنان ، طليعتهم الاديب الارمني الاصل أديب اسحق (١٨٥٦ – ١٨٨٥) . ففي سنة ١٨٨١ أنشأ في جريدة التقدم البيروتية فصلا مطولا (لم يتمه ، نشر في مجموعة الدرر) نادى فيه بالزامية التعليم ومجانيته وانتقد الدولة (وهي يومئذ الدولة العثمانية) لانفاقها نفقات لا يوجبها العقل والمصلحة بما في ذلك الميزانيات الحربية الضخمة .

القضاء والسجون

واتسع اهتمام الكتاب اللبنانيين بقضايا التحرر الاجتماعي فشمل قضايا دقيقة كالقضاء والسجون . وأتوا في هذا المجال باجتهادات تسترعي الانظار لما اشتملت عليه من نزعة حديثة جدا ، فهذا الدكتور شبلي الشميل يكتب في سنة ١٨٩٨ في جريدة « البصير » المصرية فصلا بعنوان « القضاء على القضاء » (مجموعة الشميل) يبين فيه ان قصد الانتقام لا يصح أساسا للقضاء بل يجب ان يكون الاصلاح هو القصد . ويشبه اسراع القضاء الى الحكم بالاعدام باسراع الطبيب الى البتر في المعالجة مع ان البتر لا يجوز الا مع اليأس من شفاء العضو المريض . ويتعرض للسجون فيحمل على ما تمارسه السلطات فيها من تعذيب المسجونين وينتقد ما يسود الحياة فيها من شروط بعيدة كل البعد عن الصحة ، ويطالب بتحويل السجون الى شبه مدارس رعاية لمصلحة الاشخاص الذين كثيرا ما يجرمون بدافع اوضاع اجتماعية وصيانة لمصلحة المجتمع نفسه بمساعدة جميع أعضائه على أن يصبحوا نافعين .

قضية الحرية

وهذا الياس صالح (١٨٧٠ – ١٨٩٥) الشاعر اللبناني الذي اخترمته المنية في زهرة العمر ينظم أول قصيدة عربية يتغنى فيها بالحرية في وجه السلطة العثمانية ويقدسها من حيث هي حق انساني وحاجة لا يستغني عنها البشر . ومن دقيق ما في معاني هذه القصيدة التفريق بين النظام والحرية ، فما كل نظام هو الحرية ، واذا تعارضت الحرية والنظام فالحرية فوق النظام .

ولم يلبث هذا التناول العام لموضوع الحرية أن أدى الى التفصيل فتناول الكتاب والشعراء الحرية بجوانبها المتعددة ولا سيما حرية الفكر والرأي بحثا وقولا وخطابة ونشرا وكتابة وسددوا أسنة أقلامهم الى السلطات العابثة بهذه الحرية وبوجه خاص السلطات الاستعمارية التي تجد أفضل مناخ مريح لها المناخ الخانق للاقلام .

قضية العدالة الاجتماعية

وتظهر في الادب اللبناني الحديث بوادر وعي حاد لحقيقة أساسية هي ان كثيرا من القضايا التفصيلية مع ما فيها قضية الارض والمرأة والتفرقة الطائفية والقضاء والسجون والحرية والزامية التعليم ومجانيته ، كلها تنطلق وتؤول الى القضية الكبرى : العدالة الاجتماعية الشاملة التي تضمن معها حقوق الفئات المظلومة في المجتمع وتحترم الانسان وتوفر له الوسائل والمجالات لتنمية طاقاته وبناء حياة مطمئنة سعيدة لا يفسدها الاحتكار وكوارث الحروب .

ولعل الدكتور شبلي الشميل هو بين المفكرين اللبنانيين الحديثين طليعة من يمثل هذه النزعة بوضوحها وجمالها .

فما كان يذيعه الشميل أن المجتمع سواء منه الشرقي أو الغربي يتخلله كثير من النقص واللاعقلانية في نظامه السياسي والاقتصادي ، وفي قيمة معتقداته . فلا بد فيه من تغيير . بل هو في الواقع يتغير لان ناموس التطور يسود المجتمع البشري أيضا . وسيقضي فيه على حكم الفرد المطلق ، وعلى سيطرة الاحتكار والمحتكرين ، لينشأ مجتمع أوفر حظا من العدالة والحرية والعقلانية ، يكون فيه الفرد مسؤولا عن الجماعة والجماعة عن الفرد .

وكان الشميل يرجع في كل تفسير الى العلم والمادة، والاحوال المادية ، والشروط الطبيعيـــة ، والظروف الموضوعية واثرها .. حتى وقع احيانا في الاسراف ولم يسلم من نوع فج من المادية . الا انه على أي حال ساعد الفكر العربي المعاصر على الخروج من خبط لا طائل تحته في سراديب الغيبيات . وخدم الاسلوب العامي والجراة والحرية في البحث خدمة جلى ، حتى ليصح القول ان كل مفكر حر في البلاد العربية مدين لهذا الطبيب اللبناني، النابغة الذي كان يكتب بعبارة سواء أكانت نثرية مرسلة أو مسجوعة متأنقة فان فيها اثرا قويا من حيوية الاسلوب الادبي ومن حرارة النزعة الجدلية عند الكتاب الدعـــاة لمذهب يوقنون بصحته ويؤيدونه متحمسين .

ومن اللمحات التي أشرق بها ذهنه الوقاد ، وهو ينقض القول بأن الحرب ضرورية لتلافي الجموع وتكاثر السكان ، هذه الاسطر التي كتبها سنة ١٩٠٨ في فصل « الامم والحروب » ونشرتها جريدة «البصير» المصرية : « ان الارض لا تزال واسعة جدا على الانسان رغمـا عن تشاؤم المتشائمين واحصاء الاخصائيين ، تقوم بأوده مهما زاد في عدده الى أن يتاح له ركوب متن الهواء لافتتـاح السماء والمهاجرة الى الاجرام السماوية والسفر اليهـا بمراكب الحقيقة بعد مطايا الاحلام » .

بعد الحرب العالمية الاولى

وبعد ، ان من الاسراف أن نقول ان قضايا التحرر الاجتماعي التي أسلفنا ذكرها وما أوردنا من تعليق عليها وما أثبتنا من أسماء الادباء يستنفد الموضوع . بل لا بد من الملاحظة ان اكثر بحثنا حتى الان ، اذا استثنينا بعض الاطلالات ، لم يخرج عن مواكبة الادب اللبناني في المدة بين القرن التاسع عشر وما بعد الحرب العالمية الاولى .

وبديهي ان الادب اللبناني بعد الحرب العالمية الاولى الى غمرة الحرب العالمية الثانية واصل تمرسه بقضايـا التحرر الاجتماعي فظهرت في أفقه أسماء مضيئة كاسم الاديب التقدمي الكبير عمر فاخوري (١٨٩٦ ــ ١٩٤٦) .

وثمة حقيقة يجب التنبه لها في هذا الصدد ، وهي ان ملامح المجتمع اللبناني التي أشرنا اليها في القـرن التاسع عشر قد تبدلت تبدلا عميقا تجلى في حـلول الاستعمار الغربي محل السيطرة العثمانية وفي بـروز الطبقة المالية على مسرح الحياة . ومن ثم قد تكون قضايا التحرر الاجتماعي في الادب اللبناني الحديث احتفظت بأسمائها السابقة ولكنها اكتسبت معاني أخرى من المرحلة التي واجهتها ، وباتت الى حد بعيد متوقفة على مصيـر المعركة مع الاستعمار . فلما كان الاستقلال أصبح المنطلق الاساسي لقضايا التحـرر الاجتماعي يعني المكاسـب الاجتماعية التي يرجوها الشعب من زوال نير الاستعمار وارساء دعائم الاستقلال . وفي أدب عمر فاخوري صدى قوي لتلك المكاسب الاجتماعية التي رجا الشعب تحقيقها ثمرة الاستقلال ، وقد لخص ذلك بكلمة مشهورة مؤداها بان الاستقلال اللبناني لا ينبغي له أن يكون استقـلالا للدولة اللبنانية فقط بل للشعب اللبناني أيضا .

وبعبارة أخرى ، طرحت قضية العدالة الاجتماعية على صورة اكثر حدة وعمقا .

وظهر معها ان التفكير اللبناني سياسيا واجتمـاعيا لا يكفي فيه أن يكون لبنانيا فقط أو عربيا فقط كما يقول عمر فاخوري ، بل ينبغي فيه أن يكون عالميا أيضا . وذلك بمعنى تضامن قوى التقدم في العالم كله ضد قـوى قائما على المصارحة والاستنارة المتبادلتين . ولنا ثقـة بأن تجمعنا هذا ، تجمع الكتاب الاسيويين الافريقيين ، سيكون نموذجا مثاليا لهـذا التضامن في حقل الادب والفكر .

خاتمـة

يلاحظ في تاريخ الادب عامة ان الادب حين يتصدى عمدا ومباشرة للقضايا الاجتماعية لا يأمن ان يصبـح مجرد أدب شعارات تردد أو أدب مقالات تقريرية فيفقد غناه وتنوعه في القوالب والاساليب الفنية ، كما يضعف فيه عنصر الطبيعة والتلقائية والعفوية وتتسطح فيـه التجربة الانسانية .

وفي رأيي ان تجمع الكتاب الاسيويين والافريقيين يدعو لاجتناب هذا النقص بجهدين دائبين متسقين متكاملين يبذلهما في مؤتمراته : جهد في سبيل رؤية واضحة للقيم والمثل والمـواقف التي يلتزمها الكتاب الاسيويـون والافريقيون التزام اختيار ، وجهد في سبيل خلق أدبي غني بالقوالب والاساليب لتأكيـد هذه القيم والمثـل ونصرتها . وبعبارة أوضح ، ان القضايا والموضوعـات ليست هي العنصر الاوحد في الخلق الادبي بـل ان التفنن الذي به تجسد هذه القضايا والموضوعات عنصر لا يقـل ــ ان لم يزد ــ أهمية . وذلك كي نتلافى مثل هـذه الظاهرة الملحوظة في أدبنا اللبناني الحديث في الاونـة الاخيرة ، وهي ان الادب المنطلق من رؤية واضحة أقـل اثارة في جماليته الفنية من أدب التعبير عن القلق الضائع او عن المواضيع الحائدة المنقطعة .

رئيف خوري